AL HIKMAH RESEARCH & PUBLICATION CENTRE
Al-Hikmah International Journal for Islamic Studies & Human Sciences

مجلة الحكمة العالمية
للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية
العدد 5، الرقم 5، اغسطس 2022
E-ISSN: 2637-0581
https://doi.org/10.46722/hikmah.v5i5.306

أسلوب القسم في (جزء عم) دراسة بلاغية

عبدالهادي أحمد أبوالقاسم Abdulhadi Ahmed Abulgasim
Sebha University
obadh71@yahoo.com

Article Progress

Received: 02 Mei 2022
Revised: 24 Mei 2022
Accepted: 13 August 2022

*Corresponding Author:
Abdulhadi Ahmed Abulgasim
Sebha University
obadh71@yahoo.com

ملخص

أسلوب القسم من الأساليب الإنشائية ، ومفهومه في الاصطلاح لا يختلف كثيرا عن مفهومه اللغوي، حيث يكون القسم منصبا على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ... ، وقد ورد القسم في العديد من الآيات ، تارة بلفظ (الأيمانْ) ، وتارة بلفظ (الحَلِف) ، وأحيانا تسبقه حروف القسم وهي : (الباء ، التاء، الواو) أي : (بالله وتالله ووالله) . وقد تنوع القسم في (جزء عم) ، منه ماجاء مفردا ، ومنه ماجاء متعددا ، ومنه ما اشتمل على النوعين داخلا في العديد من السور . وإذا كانت الحكمة من القسم هو أن يزداد المؤمن إيمانا ويقينا ، فإن درجة إيمانه لا تحتاج إلى دليل أو برهان ، فإيماننا بالله وتصديقنا بكتابه ، هو أساس العقيدة ، وركيزة الإيمان . هذا فيما يخص المؤمن ، أما الكافر فإذا كان الهدف من القسم إقناعه بالحجة والدليل ، فهو أصلا منكر وجاحد ومكذب بالقرآن . أما عن ضروب القسم في (جزء عم) فهذا موضوعنا الذي نحن بصدده ، وهو ما سنفصل فيه القول في دراسة بلاغية تهدف إلى الغرض المطلوب . وأي فصاحة أو بلاغة تعدل بلاغة القرآن الكريم أو ترقى إلى مستواه ...؟

الكلمات المفتاحية: القسم – السور المكية – كفارة اليمين – الظواهر الكونية

Abstract

The oath's style is one of the structural methods; its terminological concept does not differ much from its linguistic concept. Our study focuses on the oath in the Noble Qur'an and the noble Prophet's hadith…. The oath was mentioned in many Quranic verses, sometimes with the word "faith", and sometimes with the word "swearing". Sometimes it is preceded by the letters of the oath, which are: ("bi","ta" and "wa") (biAllahi, taAllahi, and waAllahi) meaning: (to swear by Allah). The oath has varied in Juz Amma (Amma part), some of it came singly, some were multiple and some of it included both types as in many verses (surahs). If the wisdom of the oath is to increase the believer's faith and certainty, then the degree of his faith does not need evidence or proof, as our belief in Allah and his book is the basis of belief and the pillar of faith. That is with regard to the believer. While for the disbeliever, if the aim of the oath is to convince him of the argument and evidence, then it is already denounced, ungrateful, and denies the Quran. As for the types of swearing in (Juz Amma), this is our topic that we study, which we will elaborate on in a rhetorical study to reach the desired purpose. which eloquence can modify the rhetoric of the Noble Qur'an or rise to its level…?! It is clear to us through this study that the highest percentage of the swearing in Juz Amma came in the swearing with cosmic phenomena and what nature included in both its silent and moving types. Perhaps this is due to the fact that these phenomena are a great proof of the wonderful creation of Allah.

Keywords: Swearing - Meccan surah's - Expiation for the oath - Cosmic phenomena.

المقدمة

الذي دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع مرده إلى موقف حصل مع أصغر أولادي عندما كان يدرس في المرحلة الإعدادية بمدرسة جلال قريطم الخاصة بالإسكندرية؛ حيث طلب منه مدرس الدراسات الإسلامية أن يقرأ نصاً قرآنياً ضمن المقرر الدراسي .. ولما فرغ

من التلاوة قال: (صدق الله العظيم)، وكان يجلس معه في المقعد طالب سعودي، فقال له: «لا تقل صدق الله العظيم» .

فأفادني ابني بما حصل ففكرت أن أكتب موضوعاً يخص القَسَم في القرآن الكريم يستفيد منه هذا الطالب السعودي ومن في حكمه، ثم رأيت أن موضوعاً كهذا يحتاج إلى وقت طويل، ليس هذا فحسب بل من المحتمل أن يكون هذا الموضوع يصلح لرسالة ماجستير أو دكتوراه؛ لأن القسم في القرآن الكريم متشعب ومترامي الأطراف حيث جاء على صور متعددة أقسم الله بها في كتابه .. ثم أرجأت الأمر إلى الظروف واستقر الرأي عندي أن أتناول القسم في جزء عم فقط وفي اعتقادي أنه يفي بالغرض المطلوب .

وقبل الشروع في الكتابة قمت بإحصاء دقيق للسور التي وردت في هذا الجزء، ثم السور التي تضمنت أسلوب القسم وموطن وروده ، وتبين لي أن القَسَم في جزء عم ورد في (13) ثلاث عشرة سورة كلها مكية من بين (37) سبع وثلاثين سورة وهي التي تضمنها جزء عم، كما بلغت النسبة المئوية لعدد مرات القسم في هذا الجزء (72,92 %) .

أما فيما يخص السور التي ورد فيها القسم فبلغت نسبتها المئوية (35,13 %) .

وهنا يدور بخلدي سؤال مؤداه، مادام الله صادقاً وكتابه حق وبرهان، فما السر في أن الله عز وجل يكرر القسم في القرآن ويأتي به في صور شتى؟ فإذا كانت الحكمة من وراء ذلك هو أن يزداد المؤمن إيماناً ويقيناً، فإن درجة إيمانه لا تحتاج إلى برهان ودليل؛ فإيماننا بالله وتصديقنا بكتابه هو أساس العقيدة وركيزة الإيمان. هذا فيما يخص المؤمن أما الكافر فإذا كان الهدف من القسم إقناعه بالحجة والدليل، فهو أصلاً جاحد للقرآن ومكذب به وإلى مثل هذا المعنى يشير الدكتور (ضيف،2010،ص6): ثم يضيف لتوضيح المعنى فيقول: "إن العرب كانوا يكثرون من القسم على كلامهم، والقرآن نزل بلغتهم، فأكثر الله من استخدام القسم في كلامه تأكيداً له مجاراة لهم".

... وأقسم مراراً بمخلوقاته ؛... لأن العرب كانوا يعظمون تلك المخلوقات ويقسمون بها فحاكاهم القرآن في ذلك للفت العرب إليها والدلالة على قدرته العظمى في خلقها وما سخرها له»(ضيف،2010)

ولم يكتف عرب الجاهلية بالقسم بالمخلوقات التي كانوا يقدسونها؛ بل أقسموا كذلك بعمرهم مثل (لعمرك)، (لعمري)، وأقسموا بالجد مثل (وجد أبيك)، وهذا كله جرى على ألسنتهم، كما جاء في قول طرفة:

فلولا ثَلاَثٌ هُنَّ مِن عِيشَة الفَتَى وَجَدِّكَ لم أَحْفِل متى قَام عُوَّدِي

(ابن العبد،1999م، ص55).

ولهذا كان الصدق من أعظم السجايا التي كان يتحلى بها هؤلاء، ليس هذا فحسب؛ بل «عَدُّوا الكذب –بعد القسم– عاراً عظيماً وزلة كبيرة لأَنَفَتهم وللحمية التي جبلوا عليها» (الفراهي، 1349هـ،ص24)

قال النابغة الذبياني:

لعَمْري وما عَمْرِي عَـلَيَّ بِهَيِّنٍ لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأَقَارِعُ (ابن السكيت، 1990م،ص49) .

وإذا أراد الشاعر مثلاً أن يحلف على شيء، «فيحلف بما يكون له مدحاً، وما يكسبه فخراً أو ما يكون هجاءً لغيره، أو وعيداً له، أو جارياً مجرى التغزل والترقق». (المصري، 2012م،ص327)

مشكلة البحث وهدفه ومنهجيته :

فيما يخص مشكلة البحث تكاد تنحصر في شئ واحد ، وهو أنه تعذر عليّ الذهاب إلى المكتبة حيث قفلت أبوابها بسبب الجائحة التي أحلت بالعالم أجمع ؛ فأرجأت الأمر إلى الظروف، وقصرت اطلاعي على المراجع عن طريق الانترنت، وإن كان التعامل مع هذه الطريقة ليس بالأمر السهل –بكل المقاييس– خاصة عندما يكون المرجع متعدد الأجزاء.

أما من حيث الهدف فلما كان القسم في القرآن الكريم جاء وقفا على السور المكية لاسيما قصار السور، ولما كانت سور جزء عم جلها مكية إذن تراءى للباحث أن يركز على أسلوب القسم في هذه السور التي احتواها الجزء. وفيما يخص منهج البحث فقد ركز الباحث على المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي إيمانا منا بأن أي دراسة لا تخضع إلى الاستقراء والإحصاء، فهي قضية لا دليل عليها، هذا بالإضافة إلى المناهج الأخرى على تعددها وتنوعها

أما ضروب القسم التي أشار إليها القرآن الكريم في جزء "عم"، فهذا موضوعنا الذي نعنيه، وهو ما نبسط فيه القول في دراسة بلاغية نسلط فيها الأضواء على السور التي احتوت هذا الأسلوب وما اشتمل عليه من علوم البلاغة الثلاثة (علم البيان، وعلم المعاني وعلم البديع) وهو أكثر وروداً في هذه السور.

وأي فصاحة أو بلاغة تعدل بلاغة القرآن الكريم أو ترقى إلى مستواه، يقول ابن أبي الإصبع (ت654هـ): «وإذا انتهيت إلى بلاغة الكتاب العزيز، انتهيت إلى نهاية البلاغة» (المصري، 2012م، ص 329)

ويُلفت انتباهنا الشيخ محمد عبده (ت:1354هـ) إلى إحدى اللطائف التي تخدم هذا السياق حيث يرى .. أن جل سور جزء (عم) مكية ، ويعلل السبب في ذلك ؛ لأنها تشتمل على العقيدة والقواعد الكلية للدين .. حتى يتيسر فهمها بألفاظ قليلة يسهل حفظها وفهمها مع بداية الدين بما في ذلك الأطفال الناشئين صغار السن الذين يتعلمون أصول العقيدة المتمثلة في هذا الدين وذلك منذ نعومة أظفارهم ، ومثل هذا الأمر لا يكون غالبا الإ في السورالمكية (رضا، 1990م،ص27)

وإضافة إلى تعليل هذه الظاهرة وتفسيرها فلعل الأمر مرده إلى نقاط ثلاث .

1- أن هذه السور نزلت قبل الهجرة ؛ وكل مانزل قبل الهجرة من سور هي تعد مكية ، بخلاف مانزل بعد الهجرة فهي مدنية.

2- نلاحظ أنها سور قصيرة ، وآياتها متشابهة ، وهذا راجع إلى سهولة الحفظ على الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، وحيث معظم أهل مكة كانوا على هذه الشاكلة .

وإلى مثل هذا المعنى يشير الدكتور عبدالرحمن نصار.

3- لما كان أهل مكة حديثي عهد بالإسلام كانت تتطلع نفوسهم أن يعرفوا عن الإسلام شيئاً وهذا لا يتأتى الإ بقراءة السور القصيرة محاولاً تفسيرها ومعرفة مضمونها .

وهذا ماذهب إليه الدكتور أحمد الشرقاوي (الذبياني،1999م،ص76)

بحوث السابقين في القسم في القرآن الكريم :

فيما يخص هذه البحوث تمكن الباحث من الاطلاع على مرجعين أحدهما للدكتور شوقي ضيف والآخر للدكتور حسين نصار.

1- **الدكتور شوقي ضيف** : له كتيب صغير الحجم بعنوان (القسم في القرآن الكريم)،من سلسلة إقرأ ،نشرته دار المعارف،الطبعة الثانية 2010م . تحدث فيه المؤلف عن عرض سريع للقسم في القرآن،وعن المقسم به والمقسم عليه،وعن الظواهر الكونية،وعن الرسل والملائكة وعن يوم البعث والحشر والمعاد .

2- **الدكتور حسين نصار** :

له كتاب أيضا في هذا المسار يحمل العنوان نفسه نشرته مكتبة الثقافة الدينية،الطبعة الأولى 1421هـ/2001م . تناول فيه المؤلف حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر الأشياء التي أقسم الله بها، وعن التناسب بين المقسم به والمقسم عليه وعن البلاغة والإعجاز،وأنواع القسم وأركانه والغرض من القسم ودواعيه. وهناك دراسة عن (سور القسم في القرآن الكريم-دراسة موضوعية) للباحثة نور وردة غزالي، لكن لم يكن بوسعنا الاطلاع عليها .

مفهوم القسم لغة واصطلاحاً :

(أ) القسم في اللغة :

جاء في لسان العرب :(حَلَفَ : الحِلْفُ و الحَلِفُ : القسم لغتان ، حَلَفَ أي أقسم يَحْلِفُ حَلْفاً و حِلْفاً و حَلِفاً ومحلوفاً ، وهو ، أحد ماجاء من المصادر على مفعول

مثل المجلود والمعقول والمعسور والميسور ، والواحدة حَلْفَةٌ) (ابن منظور،1999م،3/ 285 ، 164/11) .

وقد ورد الحَلِفُ في قول النابغة الذبياني حيث قال :

حَلَفْتُ فَلمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

وذكر صاحب اللسان أيضاً الحلف بمعنى القسم ؛ « القَسَمُ ، بالتحريك : اليمين ، وكذلك المِقْسَمُ، وهو المصدر مثل المِخْرَج ، والجمع أقسام ، وقد أَقْسَمَ بالله واسْتَقْسَمَهُ به وقاسمه : حلف له . وتقاسم القوم : تحالفوا . وفي التدليل :

{ قالوا تقاسموا بالله } »

والقسم من القسامة ، قال: « بن عرفة في قوله تعالى: " **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ** " (الحجر : 90)؛ هم الذين تقاسموا وتحالفوا على كيد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ قال بن عباس : هم اليهود والنصارى الذين جعلوا القرآن عضين آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه»

(ب) القسم في الاصطلاح :

القسم من الأساليب الإنشائية ، ومفهومه في الاصطلاح لا يختلف كثيرا عن مفهومه اللغوي ، حيث يكون القسم منصباً على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ففي القرآن مثلاً نجده أنه أشار إلى العديد من الآيات التي تخص هذا الموضوع ، وقد ورد القسم في هذه الآيات تارة بلفظ (الأَيْمان) ، وتارة بلفظ (الحلف) وتارة بلفظ (القسم) . قال تعالى: " **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** " (البقرة : 225) .

أما بلفظ الحلف فقد جاء قوله تعالى: " **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ** " (التوبة : 74).

وقوله تعالى: " **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ** " (القلم : 10) . كما جاء القسم بلفظه ؛ أي القسم، ومنها قوله تعالى: " **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ** " (الواقعة : 75). وقوله تعالى: " **لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ** " (البلد :1 ، 2).

والقسم في حد ذاته – في الكلام- ماهو الإ توكيد من صاحبه لمن يُقسم له به أو أن المخاطب هو الذي طلب منه صاحب القسم أن يعزز كلامه بالحلف ؛ حتى تطمئن نفس المخاطب التي دائما تجنح إلى الشك في أقوال البشر . ونلاحظ أن أسلوب القسم ليس قاصراً « على القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى ، لكنه عام في أسلوب البشر ، مسلمين وغير مسلمين ، في الجاهلية والإسلام ، وعند العرب وغير العرب» (الذبياني، 1990م،ص 76) .

قال أبوالقاسم القشيري: «وذلك لأن الحكم يفصل باثنين ، إما بالشهادة، وإما بالقسم...»

(السيوطي، 2010م ، ص748)

ويستطرد السيوطي القسم في الاصطلاح فيذكر بأن القسم ، هو مايريد المتكلم الحلف على شيء ، فيه فخر ، أو تعظيم لشأنه ، أو ذم لغيره ،... أو خارجا مخرج الموعظة والزهد . يفهم من هذا أن القسم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

أما الحلف فهو عادة يكون في الاعتذار ونفي التهمة ، وهذا ما عناه النابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان بن المنذر ملك الحيرة عندما وشى به الواشون ، فقال مخاطبا النعمان :

حَـلَفْتُ فَلمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِـكَ رِيبةً وَلَيْـسَ وَرَاءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم ؟ :على الرغم من أن القسم لايقتصر على لفظ واحد بل له « أساليب متنوعة ودلالات مختلفة ، وألفاظ عدة تشتمل على ثلاثة أمور : أداة القسم ، المقسم به ، المقسم عليه »

(السيوطي،2010م، ص ص 238 ، 239).

إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم نص في حديثه الذي أورده عبدالله بن دينار : أنه سمع بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(من كان حالفاً فلا يحلف الإ بالله).

ولعل سؤالاً يطرح هنا مفاده : هل الرسول صلى الله عليه وسلم جعل اليمين مقتصراً على لفظ الجلالة (الله) فقط ؟ طبعا لا .. وأكبر دليل على حكمنا هذا أن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت على صور متعددة ، وهذا ما ؟أشار إليه مسلم في صحيحه ، حيث الحلف عنده جاء بصيغ عدة منها : (والله – والذي فلق الحبة وبرأ النسمة – والذي كرم وجه محمد صلى الله عليه وسلم – والذي لا إله غيره – والذي نفس أبي هريرة بيده – والذي نفس محمد بيده – والذي نفسي بيده – وأيم الله ، وغيرها) **(السيوطي،2010م، ص ص 317 ، 318)**.

وإن كانت اليمين التي يواظب على القسم بها هي : (والذي نفس محمد بيده). كما ورد فيما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (والذي نفس محمد بيده ، لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به ، الإ كان من أصحاب النار) **(السيوطي،2010م، ص 163)**

كفارة اليمين وخياراتها :

لما كان الإنسان كثير الحلف في هذه الحياة ، وأحياناً يحلف غير مبالٍ في قسمه وما يترتب عليه من آثام ، وتخفيفا على العباد ورحمة بهم فقد خصص الله عز وجل كفارة للقسم سماها (كفارة اليمين) . حيث أشار القرآن الكريم في العديد من الآيات إلى هذه الكفارة ، ولم يكتف القرآن بالإشارة إليها ، بل جعل لها حلولاً وخيارات لمن يحنث في يمينه ؛ حيث جاءت هذه الحلول تيسيرا للمسلم ، وترك له حرية الاختيار .. وفقا لترتيب هذه الكفارة ، فالأَوْلى الأَوْلى حسب ما تقتضيه استطاعة هذه الكفارة ، مع تركيز القرآن

لعدم التعرض للحلف والوقوع للحنث فيها . قال تعالى: " **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** " (المائدة : 89).

وكذلك جاءت السنة المطهرة ، فتناولت القسم ومايلحق به من كفارة ، فعن عَدِيٍ بن حاتم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليئت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه)

(ابن ماجة، 2012 م،ص545)

تنوع القسم في جزء عم :

تنوع القسم في جزء (عم) ، منه ماجاء مفردا ، ومنه ماجاء متعددا ، ومنه ماجاء مشتملا على النوعين داخلا في العديد من السور وفق الآتي :

أولا– القسم بالملائكة :

نظراً لما للملائكة من حظوة ومكانة وعلو منزلة عند الله وسائر الخلق ، لهذا خصهم الله بالقسم بهم ؛ فهم حملة العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ؛ وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ ومما يؤكد مكانتهم هذه أن الله عز وجل جعل الإيمان بهم من صلب العقيدة ، ودعائم الإسلام وهذا أمر لا يتحقق الإ بالإيمان بهم . قال تعالى: " **آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ... " (البقرة : 285) .

وأول السور التي تقابلنا في جزء (عم) وبدأها الله بالقسم بالملائكة ، هي سورة "النازعات" قال تعالى:

" **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** ".

جاء القسم في هذه السورة مفردا ، وابتداؤها بالقسم كأنها إشارة لسابقتها سورة (النبأ)، والتي بدأت بالتساؤل الإنكاري: "عم يتساءلون"؛ أن هؤلاء المشركين عن أي شيء يتساءلون؟ ثم جاء جواب السؤال أي إنهم يتساءلون عن هذا النبأ العظيم الذي اختلفت فيه عقولهم وخواطرهم وهو القرآن الكريم.

«وبعد أن ختم الله هذه السورة بأن الكافر يوم البعث والعرض على الحساب يتمنى أن يكون تحت التراب حتى يصير شيئاً لا يذكر، وذلك لشدة الهول والعذاب وسوء المنقلب وبئس المصير.

جاءت –بعد ذلك– هذه السورة، سورة النازعات وما فيها من ضروب القسم، وكان الجواب ورد في السورة التي سبقتها "سورة النبأ"، في قوله تعالى: " **إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا** " أي أن هذا العذاب القريب الذي وعدكم الله به هو واقع لامحالة، ودليل ذلك أن الله عز وجل قَسَمَ على وقوعه بحق "**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** " إلى آخر الآيات» (**الخطيب، 1990م،ص1428**)

ويشير الإمام الطبري (ت 311هـ) إلى اختلاف أهل اللغة في موضع جواب القسم "والنازعات غرقاً"، فبعض النحاة البصريين يقولون: الله أعلم على: «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى». أما بعض نحاة الكوفة فيرون أن جواب القسم في النازعات: «ما ترك لمعرفة السامعين بالمعنى، كأنه لو ظهر كان لتبعثن ولتحاسبن» (**الطبري ، 311هـ**)

أما الإمام القرطبي (ت 671 هـ) فيرى أن "النازعات" للكافرين، و"الناشطات" للمؤمنين؛ فالملائكة يجذبون روح المؤمن برفق، والنزع جذب بشدة، والنشط جذب برفق، وقيل هما جميعاً للكفار، والآيتان بعدهما قوله تعالى: " **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا** ". قال

علي رضي الله عنه: الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين .. وقيل هي الخيل الغزاة.(**القرطبي ، 671 هـ. ص ص 192، 193**)

قال عنترة:

والخيلُ تعلمُ حين تَضْ بَحُ في حياض الموت ضبحاً

ونرى بعض أوجه الاختلاف في جواب القسم عند القرطبي، فأحياناً يذكر بأن جواب القسم «هل أتاك حديث موسى"؛ لأن المعنى قد أتاك وأحياناً يقول الجواب «يوم ترجف الراجفة»، على تقدير لَيَوْم ترجف، فحذف اللام. وقيل فيه تقديم و تأخير، وتقديره يوم ترجف الراجفة وتتبعها الرادفة والنازعات» .(**القرطبي ، 671 هـ ،ص 195**) غرقاً ولما كانت هذه الأشياء مخلوقة «لا يجوز لمخلوق أن يقسم بها؛ لأن لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه» (**الماوردي، 450هـ**).

ومن ضمن التفاسير التي يطمئن إليها ويستأنس بها، ما ذهب إليه الإمام فخر الدين الرازي (ت604هـ)؛ حيث يرشدنا إلى تفسير ترضاه النفس لما فيه من حسن القول وشفافية المعنى حيث يرى من بداية السورة

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا "

فيرى أن «هذه الكلمات الخمس يحتمل أن تكون صفات لشيء واحد، ويحتمل ألا تكون كذلك؛ أما الاحتمال الأول أنها بأسرها صفات للملائكة ... الذين ينزعون نفوس بني آدم، فإذا نزعوا نفوس الكفار نزعوها بشدة، والوجه الآخر أنها هي النجوم – وهي قول الحسن البصري– ووصف النجوم بالنازعات، كأنها تنزع من تحت الأرض فتنجذب إلى ما فوق الأرض» (**الرازي، 1985م، ص 30/28**)

وهكذا نرى تعدد الآراء حول تفسير "النازعات" هل هي الملائكة أم هي خيل الغزاة، وإن كان «القسم بطواف الملائكة هو ما عليه أغلب المفسرين» (**لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، 1992م، ص 1765**)

إلا أننا –في هذا الصدد– نجد الدكتورة بنت الشاطئ تورد الرأي الآتي: «ونحن أكثر اطمئناناً إلى تفسير النازعات، بالخيل المغيرة، دون تحديد لها بخيل الغزاة كما قال الزمخشري وغيره من المفسرين متأثرين بنزعة التعظيم في القسم بها، فما كان للمسلمين في العهد المكي خيل تغزو، ولا كان هناك دار سلام ودار حرب يخرج الغزاة منها وإليها» (**بنت الشاطئ،1990م**)

ويرى الزمخشري بأن المقسم عليه محذوف وهو : لتُبعثُنّ لدلالة مابعده عليه من ذكر يوم القيامة .

ولما كانت معظم آراء المفسرين تدور في فلك واحد حول تفسير "النازعات" بأنها طائفة من الملائكة فإننا نرجح هذا الرأي في التفسير لاسيما أن سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور يشير إلى أنه رُوي ذلك عن «علي وابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومسروق وابن جبير والسدّي» (**ابن عاشور،1984م، ص ص 61،62 ،67،140**)

ولعل أكبر دليل على أن المختص بالقسم هم الملائكة هو أن «القسم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث؛ لأن الموت أول منازل الآخرة فهذا من براعة الاستهلال» (ابن عاشور،1984م، ص 67)

ومن الملاحظ أن جملة جواب القسم (تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) (إلى خَاشِعَةٌ) لم تقترن بلام جواب القسم وذلك لبعد الجواب عن القسم، وهذا ما جرت عليه عادة أهل البلاغة حيث لا يربطون جواب القسم باللام إذا بَعُد عن القسم.

هذا النوع جاء في العديد من سور القرآن وآياته .. ونلاحظ في إسناد الفعل (ترجف) إلى (الراجفة) وما فيه من المجاز العقلي الذي يربط بين الكلمتين .

ثانيا– القسم بالظواهر الكونية :

وهذا النوع من القسم تمثل في وسائل الطبيعة بركنيها الصامتة والمتحركة ، فقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الظواهر لقوتها وعظمتها ودلالتها على قدرة الخالق والتحكم فيها والتصرف في شؤونها ؛ ليتدبر الإنسان في خلق الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، وهذا التفكير والتدبر يزداد به المؤمن إيمانا ويقينا بأن الذي يدير الكون بأسره هو خالقه عز وجل " **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** " (الأنبياء : 22) .

لهذا كله جاء االقسم بالشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والجبال ، والليل والنهار والنفس الإنسانية ... وهذا ماجاء في العديد من السور التي جاء القسم فيها متعدداً متداخلاً ...

سورة التكوير

" **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** "

ورد القسم في سورة التكوير في موضعين اثنين؛ الأول من بداية السورة "إذا الشمس كورت" إلى قوله تعالى: "علمت نفس ما أحضرت". وإن كانت السورة لم تبدأ بأحد حروف القسم، إلا أن السياق دل عليه وكذلك ورود الجواب. يقول العلامة محمد الطاهر ابن عاشور قال ابن عباس: «تكويرها، إدخالها في العرش». قال أبو عبيدة: كورت

مثل تكوير العمامة ، "علمت نفس ما أخضرت" هو جواب القسم. وإذا نظرنا إلى الآيات من (1-14) نجدها كلها قد جاءت على نسق واحد من حيث الفواصل، فنهايتها كلها بحرف (التاء) المفتوحة، ليدل ذلك على النَّبْر القرآني الذي تمثل في فواصل الآيات ...

أما القَسَم الآخر في السورة فيبدأ من قوله تعالى: " **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** ".

إن «الافتتاح بـ(إذا) افتتاح مشوق؛ لأن (إذا) ظرف يستدعي متعلقاً، ولأنه أيضاً شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده ... وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة (إذا)، وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة، فإعادة كلمة (إذا) بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاه قصر التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير، كما في قصيدة الحارث بن عباد البكري. (**العسكري،2008م**)

قَـربا مَرْبِـطَ النعامــة منـــي لقحت حَرْبُ وائلٍ عن حِيَالِ

أقسم الله "بالخنس"، وهي النجوم الظاهرة جمع "خانس" و"الكنس" جمع كانس وكانسة، يقال كانس إذا دخل الكناس، وهو مقر الوحش، إذا دخلت في الكناس، وتكنست المرأة إذا دخلت في هودجها فهي شبيهة بالظبي إذا دخل الكناس واختبأ فيه، قال أوس بن حجر: ألم تر أن الله أنزل مزنة ... (**الرازي، 1985م، ص 16**) (أي سحابة).

واختلف مفهوم الناس لهذه النجوم فثمة من يحقرها؛ وعلتهم في ذلك أنها من جملة عالم المادة، وقد غفلوا عن الحكمة الإلهية فيما تعود به من منافع تعود مصالحها على البشرية، وهناك صنف آخر يعظمونها ويتوسلون إليها كأنها آلهة تتصرف فيما حولها كما يتصرف الخالق في خلقه، وهذا اعتقاد فاسد؛ حيث لا يحق لمخلوق كائن ما كان أن ينتحل صفة من صفات الله عز وجل وينسبها إلى نفسه ويتصرف على ضوئها ولله المثل الأعلى، وبناءً عليه فإن هذه النجوم ما هي إلا مخلوقات مسيّرة

شأنها شأن سائر المخلوقات، وإلى مثل هذا المعنى يشير الشيخ محمد عبده رحمه الله (عبده ،1341هـ،ص 9)

«وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله–رضي الله عنهما– وهما صحابيان والنَّخَعي، أنها بقر الوحش، وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء، وقد قيل إنها الملائكة – حكاه الماوردي – والكنس مأخوذة من الكناس، وهو كناس الوحش الذي تختبئ فيه» (**القرطبي، 671 هـ، ص 7028**)

قال طرفة:

كـأنَّ كِنَاسَيْ ضَالَةٍ يَكْنُفَانِهَا وأطْرَقِسِـــيٍّ تحت صُلْبٍ مُؤَيـدِ

وقال الأعشى:

فلما ادَّرَكْتُ الحيَّ أَتْلعَ أُنَّسٌ كما أَتْلَعَتْ تحت المَكَانِسِ رَبْرَبُ

وقد جاء الجناس الناقص في الآية بين كلمتي: (الخُنَّس والكُنّس).

وقد جرت عادة العرب في القسم أنهم إذا أرادوا تأكيد الخبر وثبوته وظهوره، فهو عندهم لا يحتاج إلى الخبر على حد من يقول: «أنا لا أقسم بكذا على إثبات ما أذكره، ولا على وجوده، فهذا واضح جليّ ليس في حاجة إلى الحلف ... والمراد به القسم المؤكد» (**المراغي،1985م،ص58/30**)

" **وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ".

في اعتقادي أن هذه الآية تمثل أدق تعبير في القرآن الكريم خاصة فيما يتعلق بترجمة القرآن الكريم إلى غير العربية؛ فإن أي لغة عدا العربية من المستحيل أن تنقل المعنى إلى الأذهان؛ لأن القرآن معجز بلفظه ومعناه، وبصدد هذه الآية نجد الفخر الرازي يورد لنا ما ذهب إليه أهل اللغة من «أن عسعس من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أقبل، وعسعس إذا أدبر» (**الرازي،1985م،ص 16**)

ويورد صاحب البحر المحيط (ت 754هـ) ما ذهب إليه أهل اللغة، فالفراء يرى أن «عسعس الليل... إذا لم يبق منه إلا القليل، وقال الخليل عسعس الليل أقبل وأدبر،

وقال المبرد هو من الأضداد. وقال علقمة ابن قرط:

حتى إذا الصُّبْحُ لها تَنَفَّسَا وانْجَابَ عنها لَيْلُها وعَسْعَسَا

والتنفس خروج النسيم من الجوف واستعير للصبح وعناه امتداده حتى يصير نهاراً واضحاً، أقسم بإقباله وإدباره، وتنفسه كونه يجيء معه روح ونسيم، فكأنه نفس له على المجاز» (**الغرناطي،1983م، ص ص 430، 431**)

" **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ** "، هذا جواب القسم.

الضمير في (إنه) يعود على القرآن، وهو يفهم ضمنًا؛ لأن المعنى يدل عليه حتى لو لم يصرح الله بذكره وقوله: (لقول رسول كريم) «المراد به جبريل عليه السلام». فهو الذي بلّغ عن ربه بصفة القول.

«وقيل هو محمد –صلى الله عليه وسلم– وكأن أصحاب هذا القول نظروا إلى آيات سورة الحاقة: (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ... والآيات حقاً في الرسول عليه السلام، وما كان يزعمه أعداؤه من أنه شاعر أو كاهن، فالله يرد عليهم بأن قوله ليس قول كاهن ولا شاعر، وإنما قول رسول كريم على ربه لا ينطق عن الهوى» (**ضيف،1995م،ص 269**)

سورة الانشقاق

" **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ** "

فلا أقسم بالشفق؛ أي أقسم بالشفق، وقد ورد مثل هذا القسم في سورة التكوير –كما مر بنا آنفًا ، وقد جاء القسم هنا بثلاثة ظواهر كونية من ظواهر الطبيعة وهي: (الشفق، الليل، القمر) وهي كلها تدل على عظمة الله وقدرته على التصرف في نظام الكون الذي يسير في فلك منتظم لا ترى فيه عوجاً ولا أَمْتاً.

فجاء القسم في بداية السورة بالشفق وهو الاحمرار الذي يظهر عقب غروب الشمس ... قال الفراء: «سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ؛ كأنه الشفق، وكان أحمر، فهذا شاهد للحمرة» (القرطبي،671هـ، ص ص 274 – 275)

وقال الشاعر:

قُمْ يا غُلامُ أعني غَيْرَ مُرْتَبِكٍ عَلَى الزمانِ بكأسٍ حَشْوُها شَفَقُ

والشفق من الأضداد، حيث عني الحُمرة والبياض.

ثم يأتي الليل الذي تظهر فيه النجوم، ويخلد فيه كل كائن حي إلى الراحة والسكينة، وهذا ما أشار إليه القرآن في سورة (النبأ) في قوله تعالى: " **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**".

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان أن يتدبر في آيات الكون، وما تشتمل عليه هذه الآيات من معجزات تدلنا على صنع الله في الطبيعة التي حولنا، وبذلك بنوعيها الصامتة والمتحركة، والتي تسير وفق نظام إلهي بديع يجعل قلب المؤمن خاشعاً أمام عظمة الله التي تتجلى في كمال صنعه وبديع خلقه. وهذا ما عناه سيد قطب عند وقوفه على تفسير هذه السورة، حيث ذهب إلى القول: «وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها، لتوجيه القلب البشري إليها، ... لمحات ذات طابع خاص. يجمع بين الخشوع الساكن، والجلال الموهوب، وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة»(**قطب،1988م،ص 3868**)

" **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ** "

هذا هو جواب القسم. وقوله: (طبقا عن طبق) هذا مما جاء في قول العرب: «وقع فلان في بنات طبق»، إذا وقع في أمر شديد. (**الألوسي،1997 م ،ص ص 146 ، 147**)

والطبق في الأصل من المطابقة، وهو ما طابق شيء غيره. وقد جاء في قول الأقرع بن حابس:

إِنّي امرؤٌ قد حَلَبْتُ الدَّهرَ أَشْطُرَه وساقَني طَبَقٌ منه إلى طَبَقِ

«وقرأ عمر، وابن مسعود وابن عباس ومجاهد والشعبي وغيرهم ... (لَتَرْكَبَنَّ) بتاء الخطاب وفتح الباء، ... وأخرج البخاري عن ابن عباس، أن الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم– أي (لتركبن) أحوالاً شريفة بعد أخرى من مراتب القرب». وفي الآية أيضاً إشارة لما كان يلاقيه الرسول الكريم من أذى المشركين وعنادهم وهو يبلغ رسالته التي كلفه الله بها .. إلا أن الله عز وجل وعده بالنصر والفتح وقد تحقق وعد الله في هذا الجانب كما تحققت المعجزة التاريخية الخالدة التي تجلب في حادثة الإسراء والمعراج." **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ**" وهذا ما ترتب عليه جواب القسم.

وإذا نظرنا إلى الآيات السابقة نجدها قد جاءت في نسق تعبيري جميل حيث كلها ختمت فواصلها في كل كلمة بحرف (القاف)، هذا إلى جانب المحسن البديعي الذي أوحى به الجناس الناقص بين كلمتي: (وسق) و(اتسق).

سورة البروج

" **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**"

تعدد القسم في هذه السورة؛ فقد بدأت بـ (السماء ذات البروج ثم باليوم الموعود، ثم بالشاهد والمشهود).

وهذه الأقسام كل منها لها دلالاته ومرجعيته؛ فالسماء التي جاء بها القسم وصفها الله عز وجل بأن لها أبراجاً تحتوي على كواكب سيارة، والبروج عند العرب تعني القصور (**القرطبي671،ص 19،ص236**)

على حد قوله تعالى: " **وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** "، " **وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ** "، هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي –صلى الله عليه وسلم «أنه يوم القيامة، وسمي بذلك لأنهم وعدوا فيه بالجزاء بعد البعث. وإلى مثل هذا المعنى ذهب الماوردي «وشاهد ومشهود». اختلف في تفسيرهما؛ فعلي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة –رضي الله

عنهم– ذهبوا إلى القول: بأن «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، وهو القول الحسن» (**السيوطي،911هـ**)

وقال النخعي (اليوم المشهود) يوم النحر، أما ابن عباس والحسين بن علي –رضي الله عنهما– فقد ذكرا بأنه يوم القيامة واستشهدا بقوله تعالى: " **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**" (**القرطبي ، 671 هـ ، ص 284**)، وقيل اليوم المشهود يوم الجمعة.

قال الأصمعي: مشيرا إلى الحديث الشريف: «إن ليلة الجمعة ليلة غراء، ويومها يوم أزهر، والأزهر الأبيض».

وجاء الحديث برواية أخرى نصها: «أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الغرّاء واليوم الأزهر، فإن صلاتكم تعرض عليّ»

(**القرطبي ، 671 هـ ، ص 286**)

وقال أبو بكر العطار: «الشاهد الحجر الأسود، يشهد لمن لمسه بصدق وإخلاص ويقين، والمشهود الحاج، وقيل الشاهد الأنبياء والمشهود محمد صلى الله عليه وسلم»(البيضاوي،1968م،ص550)

أما البيضاوي(ت:971هـ) فيرى أن المشهود هو يوم عرفة

والمراغي لم يخص به يوماً محدداً؛ بل يرى جميع المخلوقات هي شاهدة على بديع صنع الله، وجليل قدرته وعظيم حكمته (**المراغي،1985م،ص 90**)

وَفِي كُل شَيءٍ له آيةٌ تَدُل عَلَى أَنهُ وَاحِدُ

وسبق للقرطبي أن أشار إلى هذا الرأي وأعطى الدليل على ذلك ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية ابن قُرّة ... عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «ليس من يوم يأتي على العبد إلا يُنادى فيه: يا ابن آدم، أنا خَلْق جديد، وأنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل فيّ خيراً أشهد لك به غداً، فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً، ويقول الليل مثل ذلك» (القرطبي،671 هـ، ص 284.)

وإذا ثبت هذا القول، فإننا نجد أنفسنا إليه أميل.

" **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ** " .

وهذا ما ذكره الأخفش أيضاً، إلا أنه زاد على ذلك بقوله: «وإن شئت على التقديم، كأنه قيل: قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج، وثانيها ما ذكره الزجاج، وهو أن جواب القسم (إن بطش ربك لشديد)، وهو قول ابن مسعود» **(الرازي،1985م، ص 117)**

ويؤيد هذا الرأي كل من أبي حاتم السجستاني وابن الأنباري وقد اعترض عليها بحجة «أنه لا يجوز أن يقال: والله قام زيد» **(الشوكاني،1994م، ص 408)**

أما ابن عباس فقد اكتفى بقوله: «كل شيء في القرآن [قُتِل]، فهو لُعِنَ وهذا جواب القسم».

أما الذين ذهبوا إلى أن جواب القسم (إن بطش ربك لشديد) –كما مر بنا– فهذا ما نراه بعيداً عن الصواب ودليلنا على ذلك أن هذا الجواب جاء بعيداً عن القسم؛ لذلك فالأرجح أنه لا يصلح أن يكون جواباً.

" **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ** ":

أصحاب الأخدود لغة واصطلاحاً:

أ– في اللغة:

الأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد، ومنه الخد لمجاري الدموع، والمخدة؛ لأن الخد يوضع عليها. ويقال: تخدد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من خراج، ومنه قول طرفة: **(الشوكاني،1994م، ص 408)**

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقيّ اللون لم يتخدد

ب– في الاصطلاح:

أورد الماوردي أقوالاً عدة في ذكر (أصحاب الأخدود) ونسب هذه الأقوال إلى أصحابها؛ فالإمام علي –رضي الله عنه– يرى أنهم «من الحبشة، وقال مجاهد: كانوا من

نجران، وقال عكرمة: كانوا نبطاء، وقال ابن عباس: كانوا من بني إسرائيل، وقال عطية العوفي: هم دانيال وأصحابه، وقال الحسن: هم قوم من أهل اليمن، وقال عبد الرحمن بن الزبير: هم قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية، زمان قسطنطين، وقال الضحاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث الرسول –صلى الله عليه وسلم– بأربعين سنة. وقال السديس: «الأخدود ثلاثة؛ واحد بالشام، وواحد بالعراق وواحد باليمن». (الماوردي،450هـ،ص242)

وذكر كل من الزمخشري (ت 538هـ) والفخر الرازي (ت 604هـ) قصة (أصحاب الأخدُود)؛ فالأول يورد بأنه «وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام، فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا، فأحرق منهم اثنيْ عشر ألفاً من الأخاديد وقيل سبعين ألفاً» (**الزمخشري،2009م ص 730/731**)

كما وردت القصة برواية أخرى ذكرها كل من المفسّريْن المذكورين، فمن شاء التوسعة فعليه بالرجوع إليهما في تفسيريهما .

وذكر الفخر الرازي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– «كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء»(**الرازي ،1985م ، ص 118**)

سورة الطارق

" وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ "

أقسم الله في هذه السورة بأربعة أشياء. حيث أقسم مرتين بالسماء ومرة بالطارق ومرة بالأرض، والسماء التي أقسم الله بها هي السماء التي توجد بها الكواكب التي تنير الكون بدليل أنه أعقبها (بالطارق).

وقد يراد بالسماء (المطر) على نمط المجاز في البيت المنسوب لجرير قوله:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وهو يريد بالسماء "المطر" لكونه قريباً من السماء، وربما يريد بالسماء "السحاب"؛ لأن المتعارف عليه: "ما علاك فهو سماك".

ونظراً لأهمية السماء وما تحويه من نجوم، نجد أن الله عز وجل أقسم بها في (جزء عم) ثلاث مرات. وذلك في سورة "البروج" –كما مر بنا وسورة الطارق– التي نحن بصددها وسورة "الشمس". حيث سنقف عندها لاحقاً.

كما كانت السماء محط أنظار الشعراء، فهذا بشار بن برد يقول: «أما والله إني لست أتلهف على ما يفوتني من رؤية هذا العالم، إلا على شيئين اثنين، قيل: وما هما يا أبا معاذ؟ قال: الإنسان والسماء. قيل: وَلِمَ؟ قال: لأن الله يقول: " **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** "؛ ويقول: " **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ** ".

فلا شيء أحسن مما ذكره الله بأنه خلقه في أحسن تقويم، ومما ذكره بأنه زينة ...»

(الثعالبي،1992م ،ص54)

ثم يقسم الله "بالطارق" ويأتي بالاستفهام الذي يدل على التفخيم والتعظيم "ما الطارق" فيبينه الله بأنه "النجم الكاتب".

قال الفراء: «الطارق: النجم؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق، وكذا قال الزجاج والمبرد، ومنه قول امرئ القيس : **(الشوكاني 1994م،ص414)**

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإنْ لم تَطَيَّبِ

(ديوان امرئ القيس،ص 41)

ومنه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

(الماوردي،450هـ، ص 414)

وقال ابن عباس وعطاء: (الثاقب) الذي تُرمى به الشياطين».

وقد نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يطرق المسافر أهله ليلاً؛ كي تَسْتَحِدَّ المغِيبَةُ، وتَمْتشطَ الشَّعِيثَةُ».

والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقاً . والاستحداد: حلق العانة بالحديد، والمغيبة التي غاب عنها زوجها، والشعتة التي تلبد شعرها. ومنه ما جاء ف قوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات،التي لا يجاوزهن بَرٌ ولا فاجر من شر ما خلق ...، إلى قوله في بقية الحديث، ومن شر كل طارق الإ طارقا يطرق بخير يا رحمن »

(الصابوني ،1981م ،ص 556)

وعلى هذا المعنى جاء قول جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام.

(ديوان جرير ، ص 551)

" **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** " هذا هو جواب القسم.

ثم يتكرر القسم بالسماء ويقرنه الله عز وجل بالقسم بالأرض، " **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ".

" **إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ** " وهذا هو الجواب والقول الفصل؛ هو الذي يفصل بين أمرين كالفصل بين الحق والباطل والجد والهزل.

وقد جاءت الفواصل على نسق واحد في القسم والجواب.

كذلك نجد الطباق بين (السماء والأرض) وبين (الفصل والهزل).

سورة الشمس

" **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** "

تعددت صنوف القسم في هذه السورة؛ حيث أقسم الله عز وجل بالشمس وضحى الشمس والقمر والنهار والليل والسماء وبنائها والأرض وبسطها وهذا ما توحي به كلمة (وما طحاها)، ثم يأتي القسم بالنفس وما أودعه الله فيها وخصه بها ...

ولعل فلسفة القسم ببعض المخلوقات والظواهر الكونية في القرآن الكريم ومن أمثلة ذلك هذه السورة نجد أن السر في ذلك مرده إلى أحد أمرين أشار إليهما الدكتور أحمد مصطفى المراغي في تفسيره ورصدهما في قوله:

1- «أن تكون هذه المخلوقات قد عظمت في أعين بعض الناس، وقوى سلطانها في نفوسهم، حتى عبدوها واتخذوها آلهة من دون الله كالشمس والقمر» **(المراغي،1985م،ص 23)**

وهذا ما يتفق مع جاء في أول هذه السورة "**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**".

2- «أن تكون ممن احتقره الناس لغفلتهم عن فائدة، وذهولهم عن موضع العبرة فيه؛ ولو أنهم تدبروا فيما هو عليه من جليل الصنعة، وبديع الحكمة لاهتدوا إلى معرفة خالقه، ونعتوه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال» **(المراغي،1985م،ص 23)**

وحكم "ما" في قوه: (والسماء وما بناها) أنها تحتمل وجهين إما أن تكون (مصدرية) وهي تعني والسماء وبنائها، وهو قول قتادة أو أن تكون بمعنى (مَنْ) أي السماء ومن قام ببنائها، وهو قول مجاهد، والبناء يعني الرفع كما جاء في قوله تعالى: " **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**... " أي بقوة، (سورة الذاريات: آية 47، 48) **(ابن كثير،774هـ، ص 434)**

وعلى هذا القياس جاء قول الفرزدق.

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتــا دعائمــه أعــز وأطــول

(ديوان الفرزدق،1997م،ص 242)

ومن أجمل ما في هذه السورة من ضروب القسم، هو اشتمالها على القسم بالنفس التي صنعها الله وأودع فيها غريب الصفات فهي إما نفس مطمئنة وإما نفس راضية مرضية

وإما نفس أمارة بالسوء وإما نفس لوّامة، وهذه الأصناف كلها أشار إليها القرآن الكريم في سور متعددة ...

ومن اللافت للنظر أن القسم بالنفس في هذه السورة هو لما لها من تلاحم واتساق بين غيرها من سائر المخلوقات التي ورد بها القسم في هذا الصدد ...؛ ويسوق الدكتور عبد الكريم الخطيب لطيفة من اللطائف كان لزاماً علينا أن نشير إليها في هذا المقام «ففي كيان الشمس نور وظلام، ونهار وليل، وعلو وسفل ... فالشمس تمثل العقل، والقمر يمثل الضمير الذي تستفيئ به بصيرته من العقل، كما يستمد القمر نوره من الشمس، وللعقل شروق وغروب؛ فإذا اتجه إلى الحق أسفر عن وجهه وكان نهاراً مبصراً ... وإن اتجه إلى الباطل غربت شمسه، وأطبق ليله، وعميت على صاحبه السبل، ودرست معالمها» (**الخطيب،1990م،ص ص 1582–1583**)

وكما رأينا أن القسم جاء من أول السورة من الآية (1 – 9)، ثم يأتي جواب القسم في الآية (9):

" **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ".

وهو يشير إلى النفس التي يطهرها صاحبها من الذنوب والآثام، حتى يكون من المفلحين يقابله في ذلك من أخفى هذه النفس بالمعصية والعصيان فأصبح من الخاسرين «وقد خاب من حمل ظلما».

قال أحدهم:

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وعلى الإنسان عندما يقف على هذه السورة أن يتدبر معانيها وما اشتملت عليه من مقاصد نافعة جليلة تعود على فاعلها بالخير والأجر والثواب.

وقد اشتملت السورة على العديد من المحسنات البديعية. حيث جاء الطباق بين (الشمس والقمر) و(الليل والنهار) وبين (فجورها وتقواها).

كذلك المقابلة بين (والنهار إذا جلاها) وبين (والليل إذا يغشاها) وبين (قد أفلح من زكاها) وبين (وقد خاب من دساها).

ثالثاً– القسم بالمكان :

المكان –مهما كان– له أهميته وحرمته وقداسته ، لاسيما إذا خصه الله بالذكر وأقسم به ؛ وهذا مانجده في سورتي (البلد) ، (التين) .

سورة البلد

" لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ "

أول ما يتبادر إلى الأذهان أن ظاهر هذه الآية الكريمة يُوحي بأن الله تعالى لا يقسم بهذا البلد وهو مكة المكرمة، حيث أقسم الله به في سورة "التين" في قوله: " **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** "والمراد هنا أي (أقسم بهذا البلد) فتكون "لا" زائدة، «وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير: (لأُقسم) من غير ألف زائدة على اللام إثباتاً وقرأ الناس بالألف نفياً»

(ابن عربي ،543هـ ص154)

وقد رأى الجمهور: أن (لا) هنا جاءت لتقوية الكلام وتوكيده ، على حد قوله تعالى :(ما منعك الأ تسجد) أي أن تسجد

ومن شواهد زيادتها قول الشاعر:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابة وكـاد صميـم القـلب لا يتقطع

يعني يكاد ينقطع.

وهذا البيت له قدسيته وحرمته، فعرب الجاهلية على اختلاف دياناتهم كانوا يعظمونه بصفته بيت الله العتيق الذي جعله الله أول بيت وضع للناس .. وكانوا يقسمون به على حد قول النابغة الذبياني :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيم والسعد

وقوله:

حـلفت فلم اتــرك بنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهـب

(الفراهي، 1349هـ ،ص 29)

وقول زهير بن أبي سُلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهـــم

(سُلمة،1996م ، ص 23)

وقد جاء قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن هذا البلد يوم الفتح: «إن الله حرم مكة، يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد من بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار»

(الخطيب،1990م،ص 1567)

وهذا التشريف الذي خص الله به مكة، حيث قسم بها، ثم قال: «وأنت حل بهذا البلد كرره وجعله فاصلاً في الآيتين؛ والتقدير: لا أقسم بهذا البلد، وهو حرام وأنت حل بهذا البلد وهو حلال؛ لأنه أحلت له مكة"

(الفيروزآبادي،2012م ،ص520)

" **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** " ذهب البيضاوي إلى أن "والد" هو آدم، "وما ولد" أي ذريته

(البيضاوي،1968م،ص 599)

ولما كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد نهى عن الحلف بغير الله، إذن كيف نفسر هنا أن الله عز وجل يقسم بالعديد من الأشياء؟!

وللإجابة على هذا التساؤل نجد ابن عربي (ت 543هـ) يورد لطيفة من اللطائف تتلخص في قوله:

«الباري يقسم بما يشاء من مخلوقاته تعظيماً لها ... ولله أن يشرّع ما يشاء، ويمنع ما يشاء ويبيح ما يشاء ... ولا اعتراض عليه فيما كلف من ذلك ...؛ لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» .

" **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ** " ، هذا جواب القسم. ويضيف قائلا :«ليس لله خَلْقٌ هو أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حيّاً عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً، مدبر، حكيماً، وهذه صفات الرب، وعنها عبر بعض العلماء» (**ابن عربي،1952م، ص ص 119، 120**)

وقد وردت كلمة "الإنسان" معرفة (بأل الجنس) في القرآن الكريم في (65) خمسة وستين موضعاً ، وجاءت مرة واحدة نكرة في قوله تعالى: " **وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ** " (سورة الإسراء، آية: 13).

والإنسان في هذه الحياة في تعب ومشقة وعذاب لما يواجهه فيها من مصائب وإحن منذ أن أوجده الله إلى حين أن يلقاه وهذه سنة الحياة .. التي يقاسي المرء من ظروفها وآلامها حتى تؤثر في كبده ومنه اشتقت المكابدة، وعليه قال لبيد حين يرثي أخاه:

يـا عـينُ هـلا بكيـتَ أَرْبَدَ إذْ قمنا وقام الخصومُ في كبـــد

(**الألوسي،1997م، ص 242**)

ولما كانت مسيرة الحياة على هذه الشاكلة، فهي تحتاج من الإنسان إلى صبر وجلد، وأن يسير فيها بتؤدة وحكمة وثبات واتزان؛ لأنه يسبح في بحر لجي متلاطم الأمواج تدفعه هذه الأمواج ذات اليمين وذات الشمال، فإذا لم يحسن قيادة السفينة كان مصيره الهلاك والغرق في شهوات الحياة وملذاتها ...

كما قال الشاعر:

لا تحسب المجد ثمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ومن الأوجه البلاغية التي اشتملت عليها السورة؛ "لا" الزائدة والتي جاءت لتأكيد الكلام في القسم المسند إلى المتكلم وهو الله سبحانه وتعالى. كذلك الجناس بين كلمتي : (ووالد وما ولد) وكل منهما مشتق من الولادة .

وقد جاء هذا النوع من القسم الصريح الذي سبقته (لا) في سورتين من القرآن إحداهما هذه السورة والأخرى سورة القيامة في قوله تعالى: " **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** "؛ إلا أن عبارة "لا أقسم" وردت في آيات أخرى لكنها جاءت في وسط بعض السور مثل: «الواقعة، الحاقة، المعارج، التكوير، الانشقاق» (**بنت الشاطئ،1990م،ص165**)

سورة التين

" **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** "

جاء القسم في هذه السورة في أربعة مواضع وهي: التين والزيتون وجبل الطور الذي ناجى فيه موسى عليه السلام ربه وهو جبل سينا، أما القسم الرابع فهو بالبلد الأمين وهو مكة شرفها الله والتي فيها مقام إبراهيم عليه السلام، والذي أشار الله إليه في موطن آخر في قوله تعالى:" **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا** ".

« ولا يكون القسم الإ باسم معظم . وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع ... فإن قيل : كيف أقسم بما يخلق ، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله ؟ قلت : أجيب عنه بأجوبة : أحدها : أنه على حذف مضاف ، أي ورب التين ، ورب الشمس ، وكذا الباقي » (**السيوطي ،1988م ،ص 341**)

وقد اختلفت آراء المفسرين حول المراد (بالتين والزيتون)؛ فالطبري (**الطبري،311هـ ، ص 240**)

يذهب إلى القول بأن "التين" هو التين المعروف لدينا، وهو التين الذي يؤكل، وأما الزيتون فهو الذي يعصر ويستخرج منه الزيت وإلى مثل هذا المعنى ذهب كل من القرطبي والبيضاوي ... ويستشهد القرطبي بقول الشاعر:

التيــن يعــدل عندي كـــل فاكهة إذا انثنى مائلاً في غصنه الزاهي

مُخَيْمَس الوجه قد سالت حلاوته كــأنه راكـــع من خشيــة الله

(الطبري،311هـ ، ص 240)

ويشير البيضاوي إلى رأيين آخرين أن "التين والزيتون" (الطبري،311هـ ، ص 240) ،هما جبلان من الأرض المقدسة، أو مسجدا دمشق وبيت المقدس.

وإلى مثل هذا المعنى يذهب الشيخ محمد الطاهر ابن **عاشور (ابن عاشور،1984 م)**

الذي يحتج على ذلك بقول النابغة يصف سحابات بقوله:

صُهبا ظماء أتين التين عن عُرض يــزجين غيماً قليــلا ماؤه شبما

وقد نُسب البيت لزهير بن أبي سُلمة .

ومن بين المفسرين المحدثين الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي ذهب إلى القول بأن المراد (بالتين والزيتون) هما عصرا آدم أبي البشر الأول، « وهو العهد الذي طفق فيه وزوجته يخصفان عليهما من ورق الجنة، والزيتون هو عصر نوح عليه السلام وذريته حينما أهلك الله من أهلك بالطوفان ونجى نوحاً في سفينته ... حيث جاءته بعض الطيور حاملة ورقة من هذا الشجر فاستبشر، وعلم أن غضب الله قد سكت ومن ثم فإن التين والزيتون يمثلان هذين العصرين » . **(المراغي 1985م ص 194)**

وعلى الرغم من تباين آراء المفسرين حول (التين والزيتون)، فنحن نرجح الرأي الذي ذهب إليه الطبري؛ فهو يأتي في طليعة المفسرين القدامى الذين يعتد بآرائهم .

هذا عن التين، أما عن الزيتون فقد أشار إليه عز وجل في قوله: " **يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ**". وجاء في الحديث: «كلوا الزيت وأدهنوا به فإنه مبارك » (**ابن ماجة ،2012 م ،ص 35**)

" **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** " هذا جواب القسم؛ وقد جاء بعد أن أقسم الله عز وجل بالأقسام الأربعة التي تحدثنا عنها آنفاً .. يأتي بعدها (اللام، وقد) اللتان تفيدان التحقيق، حيث لا ريب في أن هذه التأثيرات الستة بالقسم يأتي بعدها الجواب الذي يخص الإنسان وكيف خلقه الله في أحسن صورة وبيان خَلْقاً وخُلقاً. مهما كان نوعه؛ حيث المراد بالإنسان هنا الجنس سواء أكان مؤمناً أم كافراً (**الشنقيطي ، 2005م ،ص 336**)

وهناك لطيفة يسوقها القرطبي عن الرجل الذي طلق زوجته على عهد المنصور الخليفة العباسي والذي قال لزوجته: «أنتِ طالق إن لم تكوني أحسن من القمر». فظلت حائرة وطلبت منه الطلاق؛ وهب مسرعاً إلى المنصور وأخبره بما جرى من تصرفه، فاستحضر المنصور أهل الفتوى فاتفقوا جميعاً على وقوع الطلاق إلا رجلاً واحداً كان على مذهب الإمام أبي حنيفة، الذي طلب المنصور منه الفتوى فقال: بسم الله الرحمن الرحيم «والتين والزيتون ... إلى قوله تعالى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». فأيد المنصور هذا الرأي وحكم بعدم حصول الطلاق ...

والذي يبدو لنا من هذه القصة أن الرجل الذي أصدر فتواه منفرداً عن بقية الفقهاء، هو يرى حقيقة لا تقبل الشك أن الإنسان هو أفضل وأحسن مخلوقات الله ظاهراً وباطناً .. وهذا ما دفع الفلاسفة إلى القول عن الإنسان: «إنه العالم الأصغر، إذ كل ما في المخلوقات جُمع فيه» (**القرطبي 671 هـ ، ص 114**).

لكن هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن ما يريد والذي منحه العقل السليم، من عجائب الأمور نجد أنه لم يواجه نعمة العقل بالشكر والعرفان، كما نسى أو تناسى فضل الله عليه؛ فطغى وبغى وعاث في الأرض الفساد وأحل سفك دماء العباد، ونشر الظلم

وزرع الأحقاد، وأكل أموال الناس بدون وجه حق، وجرى وراء الدنيا الصغرى الزائفة والزائلة والتي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وهو يلهث وراءها، يجمع المال من حلّه وحرامه، دون تدبر أو تعقل، وقد غفل عن ذكر الله وما نص عليه في التنزيل " **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ".

ونلاحظ الصور البلاغية في هذه السورة ؛ حيث جرى نسق الآيات على هيئة المزاج العقلي في ذكر : (والتين والزيتون) وما دل عليه موضعهما ، الشام وبيت المقدس على الأرجح ، كذلك جاء الطباق بين (أحسن تقويم) وبين (أسفل سافلين).

رابعا– القسم بالزمان :

الوقت له قيمته اليومية والعملية ، ومن واجبنا أن نحسن التصرف فيه ونستغله ؛ فهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، وعمر الإنسان محدود مهما طال لذا من واجب الإنسان أن يعرف كيف ينظم وقته ، فمنه ماهو للعبادة وماهو للعمل وماهو للراحة ... وغيرها ، ونظرا لما لهذه الأهمية من قيمة فقد أقسم الله به في كتابه . وهذا مانلمسه في السور الآتية

سورة الفجر

" **وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**"

الفجر فجران، أحدهما كاذب والآخر صادق، والذي أقسم له به هنا هو الفجر الصادق الذي يمسك فيه الصائم وتحل فيه صلاة الصبح، وهي يطلق عليها أحياناً "صلاة الفجر"، قال تعالى: " **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ". وهو يعني به صلاة الصبح. وهذا ما أشار إليه الألوسي «كما روي عن عليّ كرم الله وجهه، وابن عباس وابن الزبير وغيرهم —رضي الله تعالى عنهم–» ، وسمي الصبح فجرا لكونه فاجرا لليل ، وهو كاذب لا يتعلق به حكم الصوم والصلاة ، وصادق به يتعلق بهما .. ولعل

المراد هنا الصادق فهو أحرى بالقسم به (**الألوسي،1997م، ص ص 215 ، 216**)

وكثيرا ما يطلق على صلاة الصبح صلاة الفجر ؛ وفي التنزيل: " **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** " (الإسراء : 78) .

" **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** " ، هي العشر الأواخر من رمضان، كما ورد عن ابن عباس، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان: «إذا دخل العشر –تعني العشر الأواخر من رمضان– شد مِئزره، وأحيا ليله وأيقظ أهله». وعن يمان وجماعة، أنهن العشر الأول من المحرم، وفيها يوم عاشوراء، وقد ورد في فضله ما ورد. أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: «إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قدم المدينة، فوجد اليهود صيامًا، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما هذا اليوم الذي تصومونه»؟ فقالوا: يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى عليه السلام شكرا، فنحن نصومه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم»، فصامه رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وأمر بصيامه» (**ابن الحجاج،2012 م، ص11**)

" **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ".

كل زوج فهو شفع، وكل فرد فهو وتر، وهما لغتان بفتح الواو وكسرها، " **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** " يقبل ويدبر في تعاقب مستمر. وما خلقه الله في الكون كله شفع ومنه «السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، والله الوتر وحده، قال مجاهد في قوله: (ومن كل شيء خلقنا زوجين). قال: الكفر والإيمان، والسعادة والشقاوة، والهدى والضلال، والليل والنهار» (**الطبري ،311هـ، ص171**).

ويرى الماوردي أن "الشفع والوتر" هي صلاة المغرب؛ الشفع منها ركعتان، والوتر الثالثة». ويستطرد الحديث، فيقول: «الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، والشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة» (**الماوردي،450هـ، ص 266**).

وقد حذف جواب القسم وتقديره : «ورب هذه الأشياء لتعذين ياكفار مكة، ويدل عليه قوله تعالى: " **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** "» .

وقد تنوعت أوجه البلاغة، حيث «الاستفهام التقريري في قوله: " **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**"، كذلك السجع الرصين غير المتكلف مثل:" **وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** " (**الصابوني،1981م، ص557**)

سورة الليل

" **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى**"

أقسم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بثلاثة أشياء هي: (الليل والنهار وخلق الأناسي سواء من ذكر أو أنثى)، وجواب القسم (إن سعيكم لشتى).

والليل له مدلول عند الجغرافيين يختلف عنه عند أهل الفقه والعلماء؛ فعند الجغرافيين يمتد هذا الليل من وقت غروب الشمس إلى شروقها (ضيف،2010،ص 31)... أما عند الفقهاء فمن مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق التي تجب فيه صلاة الفجر أي صلاة الصبح التي كثيراً ما تعرف بصلاة الفجر كما جاء في قوله تعالى: " **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** " (سورة الإسراء: من الآية 78).

سورة الضحى

" **وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** "

أقسم الله بالضحى: وهي وقت ارتفاع الشمس أول النهار، حتى وقت الزوال بقليل؛ وهذا هو الوقت التي تؤدي فيه صلاة الضحى، وثمة أقوال عديدة وردت عند

المفسرين في سبب نزول هذه السورة، فعن هشام ابن عروة، عن أبيه قال: «أبطأ جبريل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فجزع جزعاً شديداً، وقالت خديجة: أرى ربك قد قلاك، فما نرى من جزعك، قال: فنزلت " **وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ *وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**". **(الطبري،311هـ، ص 232)**

وما نسب إلى السيدة خديجة –رضي الله عنها– من قول فلربما هو من قول المشركين وأنه ضرب من عزوف الله عن نبيه ووداعه إياه، وانقطاع الوحي عنه؛ كيف والسيدة خديجة هي التي طمأنته في أول نزول الوحي كما جاء في سورة (المزمل) وسورة (العلق). وربما يكون قولها هذا لرسول الله عليه السلام من قبيل التأسف والحزن، لاسيما عندما رأته جزعاً وقلقاً وحائراً من هذا الموقف الرباني، وإلى مثل هذا التعليل ذهب ابن كثير. **(ابن كثير،774هـ،ص446)**

وينقل ابن كثير رأياً آخر، وهو ما رواه الأسود بن قيس قال: «سمعت جندباً يقول: اشتكي النبي –صلى الله عليه وسلم– فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله عز وجل

" **وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** "، وقيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب». **(ابن كثير،774هـ،ص446)**

يقول ابن القيم : «هو قسم على النبوة والمعاد ، وأقسم بآيتين عظيمتين دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته ، وهما الليل والنهار ، فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه ، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : ودع محمد ربه . فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد احتباسه واحتجابه . وأيضا فأن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار

هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس وهذان للعقل». **(الجوزية،751هـ،ص 72)**

وتطل علينا الدكتورة بنت الشاطئ بعد طول تدبر وتأمل في هذه السورة المستهلة بالواو حيث تنحى منحى آخر تمثل في قولها : « والذي اطمئنيت إليه ... هو أن الواو والقسم بها يمكن أن يكون –والله أعلم– قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم ، إلى معنى بياني ؛ على نحو ماتخرج أساليب الأمر والنهي والاستفهام عن أصل معناها الذي وضعت له ، لملحظ بلاغي . فالواو في هذا الأسلوب تُلفت إلتفاتا قويا إلى حسّيّات مدركة ليست مع غرابة أو جدل توطئة إضاحية لبيان معنويات أو غيبيات لا تدرك بالحس». **(بنت الشاطئ،1990م،ص 25)**

ونجد من الباحثين من يؤيد كلام الدكتورة بنت الشاطئ فيسوق رأيه في قوله : «... ولكن الواو لم تخرج عن معناها في القسم للتعظيم ، والقسم –في ظني– ليس معنى معنويا للواو ، وإنما هو معنى تفيده الواو في تراكيب خاصة ، الواو للقسم والتعظيم ، واللفت إلى المعنوي ، وهي لو لم تكن قسما ماكانت تفيد كل تلك المعاني». **(عيسى، 2012م، ص ص 397 ، 398)**

والرأي الذي عليه أكثر المفسرين «أن اليهود سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فقال: (سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله)، فاحتبس عنه الوحي، وقال ابن زيد: السبب فيه كون (جُرْوٍ) في بيته للحسن والحسين، فلما نزل جبريل عليه السلام، عاتبه رسول الله –عليه الصلاة والسلام– فقال: «أما علمت إنَّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة». **(الرازي،1985م، ص 211)**

ثم يلي ذلك القسم بـ (والليل إذا سجى)؛ والسجو هنا لا يعود على الليل بل فيه إشارة إلى سكون الناس وإنما أسند إلى الليل على سبيل المجاز، كما يقال: (سجى البحر) أي سكنت أمواجه. قال الأعشى:

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساح لا يواري الدعامصا

والليل هو دائماً الذي يستر أفعال الناس ، فهو الذي يشفع للأحبة باللقاء عن اشتداد ظلمته. كما يقول المتنبي:

أزورهم وسـواد الليل يشـفـع لي وانثنـى وبياض الصبح يغرى بي

ولم يقتصر القسم بالليل على هذه السورة فحسب، بل نجده وارداً في سور أخرى مماثلة مثل (المدثر والتكوير والفجر والشمس والليل ...).

فهذه السور التي تصدرت بالقسم (بالواو) لا شك أنها تخرج من معناها اللغوي إلى معنى بلاغي يهدف إلى الكشف عن المعاني وإدراكها إدراكاً حسيّاً.

" **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** " هذا جواب القسم.

وودّع من التوديع والوداع وهو ما يجري عند سفر الأحباب والأصحاب وهو يعني الترك والتخلي وهو ما تقصده الآية هنا؛ أي أن ربك يا محمد ما تركك أو تخلى عنك أو قلاك أي كرهك وهجرك.

وإذا نظرنا إلى كلمتي : (ما ودعك) ، (وما قلى) ؛نجد أن الأولى ذكر فيها المفعول به وهو الضمير (الكاف) أما في الثانية فقد أسندت إلى المفعول ، حيث لم يقل (وما قلاك) حتى لا تدل على البعد والهجران والكراهية المطلقة ، لكن هذه الكراهية سيعقبها لقاء الله مع رسوله (**المغاوري، ص 120**) ،كما دلت عليه بقية آيات السورة .

وحاشا لله أن يتخلى عن نبيه لحظة واحدة .

(المغاوري،الإعجاز البياني في آيات القرآن الكريم،ص 120)

وعلى مثل هذا المعنى جاء قول بشار بن برد في حق حبيبته:

يـا منظرا حسنا رأيته مـن وجه جـارية فـديته

حـال الخليفة دونه فصـبرت عنـه وما قليـته

(ديوان بشار بن برد ، 2008م ،ص 46)

والوداع دائماً يكون بين الأحبة ومن تعز مفارقته كما قال المتنبي:

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أي الظاعنين أشيع

أما أنا شخصياً فلا أحبذ التعبير بكلمة (توادعنا)، بل استبدلها دائمًا بكلمة (تواددنا) واللغة العربية هي لغة الترادف نختار منها نشاء.

وسورة الضحى تتضمن لطيفة من اللطائف وهي: أنها «لما نزلت كبّر –صلى الله عليه وسلم– آخرها فَسُنَّ التكبير آخرها، وروى الأمر به خاتمتها، وخاتمة كل سورة بعدها، وهو: الله أكبر أو لا إله إلا الله والله أكبر» (البيضاوي،1968م،ص563)

إن القسم الذي ورد في سورة الضحى له مدلول خاص حيث الضحى والليل وما فيهما من معاني الإشراق والوضوح وسجو الليل بهدوئه وسكونه وعلى هذا المنوال يجري نظام الحياة، فالأمر الذي لا ريب فيه أن للكون نظاماً معيناً يسير وفق ما رسمه الله له دون رَبْكٍ أو اضطراب. وهذا من بديع صنع الله، وليس في مقدور أحد من البشر أن يلعب في هذا النسيج الإلهي مهما أوتي شخص ما من العلم عتيّاً — ولو ترك الله عز وجل للبشر حرية التصرف في مثل هذا الأمر لاختل نظام الكون، ولذهب كل حسب هواه، ومن ثم انقلبت الموازين جراء هذا العبث الذي تدخل فيه العقل البشري وصيره وفق رغباته وهواه .. ولو حدثت لنفسها الأكوان لاجتمع التساوي والرجحان وذا محال. فسبحانه من إله مبدع أجرى نظام الكون على حسن صنعه وحكمته.

سورة العصر

" وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ "

هذه السورة تسير على منهج واحد من بدايتها إلى نهايتها وقد جاء القسم فيها بصلاة العصر وهذا ما عليه معظم المفسرين وهناك من يرى غير ذلك سنتعرض إليه بعد قليل.

ونحن نميل إلى أنها صلاة العصر؛ لأنها الصلاة الوسطى التي نعتها الله عز وجل بقوله:

" **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى** " (البقرة: 238) ، وفي قوله عليه السلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى- صلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا ».

وجاء قوله أيضاً: «من فاتته العصرُ فكأنما وِترُ أهله ومالُه». **(ابن الحجاج،2012م،ص ص113 – 116)**

وربما تخصيص صلاة العصر والاهتمام بها دون غيرها راجع إلى أن «التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس على تجارتهم ومكاسبهم آخر النهار، وانشغالهم بمعايشهم في ذلك الوقت». **(مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف،1992)**

وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد عبده –رحمه الله- حين قال: «(والعصر): هو الزمان الذي تقع فيه حركات الناس وأعمالهم؛ أي الدهر كما قال ابن عباس، أو هو الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر، وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويذاكروا في شؤونهم، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق أو يؤذي به بعضهم بعضاً، فيتوهم الناس أن الوقت مذموم، فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان في نفسه ليس مما يذم ويُسب كما اعتاد الناس وأن يقولوا زمان مشؤوم ووقت نحس ودهر سوء وما يشبه ذلك». **(عبده،1341هـ، ص 152)**

وفيما يخص العصر من أنه الدهر ما أورده ابن عربي حيث يقول: قال مالك: «من حلف ألا يكلم رجلاً عصراً، لم يكلمه سنة، ولو حلف ألا يكلمه العصر لم يكلمه أبداً؛ لأن العصر هو الدهر». قال ابن عربي عن العصر: فأما ما يتعقل بالزمان ففيه أربعة أقوال:

الأول: العصر الدهر، والثاني: الليل والنهار (قال الشاعر) هو حميد بن ثور – كما في القرطبي واللسان مادة (عصر):

لم يلْبث العَصْران يوماً وليلةً إذا طـلبا أَنْ يُـدْركا مـــا تَيَمَّما

الثالث: الغداة والعشي؛ قال الشاعر:

وأَمْطُلُه العَصْرِيْن حتى يَمَلَّنِي وَيَرْضَى بِنِصْفِ الدَّيْنِ والأَنْفُ رَاغِمُ

الرابع: أن العصر ساعة من ساعات النهار». **(ابن عربي،1979م)**

وقيل: «إن المراد بالعصر في الآية عصر نبوة رسول الله الممتد من زمنه مع أمته إلى آخر الدنيا».

(أبو موزيريق ،2011م ،ص 403)

ثم جاء الاستثناء بعد ذلك في قوله تعالى: " **إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ". وقد جاء القول بأن المعنى بالإيمان هو أبو بكر، (وعملوا الصالحات) منسوب إلى عمر، (وتواصوا بالحق) هو عثمان، (وتواصوا بالصبر) عليّ –رضي الله عن الخلفاء الأربعة ولُعن أبو جهل وهو المقصود في قوله: " **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ". **(الفيروزآبادي،2012م،ص542)**

وتمثل هذه السورة جانباً بلاغياً واضحاً ؛ حيث جاءت فواصلها على حرف الراء، كما نلاحظ السجع في (العصر، خسر، الصبر).

ولعل الاستثناء الذي اشتملت عليه هذه السورة والمتمثل في الإيمان والعمل الصالح يلفت انتباه القارئ إلى أن كل من يتصفح القرآن الكريم ويتتبع الآيات التي تتضمن الإيمان، يجد جميعها مقرونة بالعمل الصالح، وما أكثر هذه الآيات، والتحام الإيمان بالعمل الصالح له كنهه ومغزاه، ولتوضيح ذلك يمكننا القول: بأن الإيمان إذا خلا من العمل الصالح فهو وحده لا يؤدي إلى ما يريده الخالق جل وعز، فالإيمان بدون عمل كشجر بلا ثمر لا يسمن ولا يغني من جوع، ولهذا دائماً نجد القرآن ينص على الذين (آمنوا وعملوا). قال تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** " (سورة يونس: الآية 9).

وقال تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**" (سورة الكهف:30) .

خامساً– القسم بالحيوان :

الحيوان له مكانته وأهميته سواء لاتخاذه وسيلة للركوب أو للزينة وهذا مانص عليه قوله تعالى: "**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** " (سورة النحل:8).

أما فيما يخص الخيل فكانت من بين عُدد الحرب في الجاهلية والإسلام ؛ حيث كانت في الجاهلية هي والإبل تعرف باسم المال : حتى سُئل أعرابي يقود إبلا لمن هذا المال ؟ فقال : لله في يدي . والخيل هي:« الدعامة الحيوانية الأولى في الحروب العربية ، فمنذ العصر الجاهلي ويحافظ العربي عليها كسند أساسي في غاراته أو صدها ... ولم تكن العرب تعد المال في الجاهلية الإ الخيل والإبل ». **(زلط،1989م، ص 205)**

وها هو عنترة يصف حصانه في الحرب وهو في حالة كر وفر ، يقول :

فـازْوَرَّ مِـنْ وَقْـعِ القَنَا بِلَبَانِه وشـكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُـمِ

لو كان يَدْري ما المحاورةُ اشْتَكَى أو كَانَ يدري ما جواب تكُلمي. (بن شداد،1970م، ص ص 217 - 218)

أما في الإسلام وبعد أن أراد الله إبراز دينه على يدي رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، الذي بعثه الله عز وجل لحمل مشعل الهداية للناس كافة ، ولما تصدى هذا الرسول لمجابهة أعداء الدين بالسيف وإعداد عدة الحرب كانت الخيل في مقدمة هذه العدة ، وتلقى عليه الصلاة والسلام أمر التكليف المتمثل في قوله تعالى: " **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** " (سورة الأنفال: 60).

فالخيل –كما نعلم– دائما معززة مكرمة لما حباها الله من فوائد جمة في السلم والحرب حيث عدها الله عز وجل من عدة الحرب لدحر العدو ، وإلقاء الرعب في نفسه وبالتالي هزيمته وهذا مانصت عليه هذه الآية . كما أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم

مكانة الخيل في قوله عليه السلام : (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم).

(البخاري ،1986م ،ص 66)

والله عز وجل لما تعدى القسم بذاته وشمل أنواع عديدة من ضروب القسم فهو يقسم بالخيل معددا صفاتها في حالات الحرب وكيف تغير على الأعداء ، وما تحدثه من أصوات مزمجرة تدخل الرعب في قلوبهم وماتسببه من مثاري النقع . هذا كله تضمنته سورة (العاديات) التي أقسم الله بها .

سورة العاديات

" وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ".

نلاحظ في هذه السورة تساوي القسم وجوابه، حيث في قوله تعالى: "والعاديات" أقسم «بثلاثة أشياء: العاديات والموريات والمغيرات، وجعل جواب القسم أيضاً ثلاثة أشياء: «إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد». **(الفيروزآبادي،2012م ،ص537)**

أقسم الله في هذه السورة (بالعاديات) وهي خيل الغزاة التي تغير على العدوّ؛ وأما الضبح فهو الصوت الذي يخرج من أنفاسها وقت سيرها وجريها وكذلك الإبل أيضاً. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: «وقد يوصف به الإنسان، وأحسب أنه على التشبيه بالخيل، ومنه عدّاؤو العرب، وهم أربعة: السّليك بن السُّلكة، والشنفرى، وتأبط شرا، عمرو بن أمية الضمري، يضرب بهم المثل في العدو وتأنيث هذا الوصف هنا؛ لأنه من صفات ما لا يعقل». **(ابن عاشور،1984م، ص ص ، 421 ، 498 ، 502 ، 503)**

وثمة اختلاف بين الصحابة حول هذه "العاديات"؛ هل هي خيل الغزاة أم يقصد بها إبل الحُجاج التي تتجه من عرفات إلى مزدلفة ثم إلى مِنًى، وإن كان الضبح يخص الخيل وهو صوت أنفاسها الفاتح من شدة العَدْو، وهو يختلف عن صهيل الخيل وحمحمتها. "فالموريات قدحاً" وأصل القدح للنار التي تخرج من الزناد وقد استعير هنا للخيل التي تضرب بسنابكها وهي مسرعة في عدْوها فهي كناية عن أنها تبعث ناراً من حوافرها».

" **فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا** ": وهي تعني هذه الخيل التي يقودها الغزاة، فهي تغير منذ الصباح الباكر قبيل طلوع الشمس حتى تتمكن من الفتك على الأعداء والسيطرة على عدتهم وعتادهم، وهذا لا يتم إلا في الوقت الذي أشارت إليه الآية.

"فأثرن به نقعا": والنقع هو الغبار الناتج في ساحة الوغى الذي تحدثه هذه الخيل أثناء المعركة وهي مقبلة مدبرة . قال امرؤ القيس يصف حصانه :

مكــر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

" **إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** ": وهذا جواب القسم؛ "والكنود" صيغة مبالغة على وزن "فَعُول"؛ وهذا طبع ابن آدم دائماً جاحد بنعمة الله ناكر لها كما تحدثه به نفسه من حقد وأنانية وسوء طباع. وروي عن أبي أمامة الباهلي بسند ضعيف قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : «الكنود هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده».

وقد جاء جواب القسم مؤكداً (بإن ولام التوكيد) في صور الجواب الثلاث، «ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه» (**أبو موزيريق،2011م، ص 403**)

وإلى جانب هذا التوكيد البلاغي –الذي أشرنا إليه– نجد أيضاً الجناس غير التام بين كلمتي: (ضبحاً) و(صبحاً) .

الخاتمة والنتائج والتوصيات :

* اتضح لنا من هذه الدراسة أن أعلى نسبة مثلها القسم في (جزء عم) جاءت في القسم بالظواهر الكونية وما اشتملت عليها الطبيعة بنوعيها الصامتة والمتحركة ؛ ولعل هذا راجع إلى أن هذه الظواهر هي دليل قاطع على بديع صنع الله .

* جعل الله كفارة للقسم سماها (كفارة اليمين) ، وترك لصاحبها حرية الاختيار في التكفير عن يمينه ، وفي هذا تيسير للعباد ورحمة بهم .

* سور القسم في (جزء عم)كلها مكية ، وتعليل ذلك راجع لسببين ؛ الأول أنها نزلت قبل الهجرة وكل مانزل قبل الهجرة فهو مكي ، والسبب الآخر أن أهل مكة كانوا حديثي عهد بالإسلام ، حيث كانت نفوسهم تطلع إلى معرفة شيء عن هذا الدين وهذا لا تحققه الإ السور القصيرة التي يسهل تفسيرها ومعرفة مضامينها.

التوصيات :

1- تفشت ظاهرة الحلف في مجتمعاتنا اليوم ولأبسط الأسباب ولاسيما عند التجار؛ حتى يرضوا زبائنهم، وهم من كثرة حلفهم يقعون في الإثم وهم لايعلمون. لهذا نرشدهم إلى ترك هذه العادة التي تجلب الضرر أكثر من النفع .

2- بعض الناس يلجأون إلى الحلف بغير الله، إما بالآباء أو بالرسل أو الأولياء أو الأماكن لمقدسة، وهذا يتنافى مع الحديث الشريف:(من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) .

شكر وتقدير Acknowledgments

يتقدم الباحث بالشكر إلى Sebha University لإعطاء بيئة مواتية لإجراء وبناء فكرة هذا المقال.

تضارب المصالح Conflict Of Interests

يعلن ويعترف الباحث بعدم وجود تنافس في المصالح المالية أو الشخصية أو غيرها فيما تتعلق بكتابة هذا المقال.

مساهمات الباحث / الباحثين Authors' Contributions

صمم الباحثون هذه الدراسة كلها سويا.

References

Al-Qur'ān Al-Karīm

'Abduh, Al-Shaykh Muḥammad. Tafsīr Juz 'Amm. Al-Jum'iyyah Al-Khayriyyah Al-Islāmiyyah. Matba'at Miṣr. Al-Qāhirah. Miṣr.

Abū Al-'Atāhiyah. 1964. Dīwān Abī Al-'Atāhiyah Akhbāruh Wa Ash'āruh. Maktabat Dār Al-Malāaḥ. Dimashq. Sūriā.

Abū Mūzīrīq, Aḥmad 'Abdulsalām. 2011. Tafsīr Irshād Al-Ḥayrān Ilā Tawjīhāt Al-Qur'ān. Dār Al-Madār Al-Islāmī. Bayrūt. Lubnān.

Al-Alūsī, Al-'Alāmah Abū Al-Faḍl Shihābuddīn Maḥmūd Al-Baghdādī. 1997. Rūḥ Al-Ma'āni Fī Tafsīr Al-Qur'ān Al-'A Ẓīm Wa Al-Sub'u Al-Mathānī. Dār Al-Fikr Li Al-Tibā'ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī'. Bayrūt. Lubnān.

Al-A'shā. Maymūn Bin Qays. Dīwānah. Maktabat Al-Ādāb Bi Al-Jamāmīz. Al-Matba'ah Al-Namūdhajiyyah Bi Al-Ḥilmiyyah Al-Jadīdah. Al-Qāhirah Miṣr.

Al'askarī, Abū Hilāl Bin 'Abdillah Bin Sahl. 2008. Dīwān Al-Ma'āni. Muassasat Al-'Ulyā. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Bayḍāwī, Nāṣiruddīn Abū Al-Khayr 'Abdullāh Bin 'Umar. 1968. Anwār Al-Tanzīl Wa Asrār Al-Ta'wīl. Al-Tab'at Al-Thāniyyah. Maṭba'at Muṣṭafā Al-Bābī Al-Ḥalabī Wa Awlāduh Bimiṣra.

Al-Bukhārī, Al-Ḥāfiẓ Aḥmad Bin ‘Alī Bin Ḥajar Al-’Asqalānī. 1986. Fatḥ Al-Bārī Li Sharḥ Ṣaḥīḥ Al-Bukhārī. Al-Tab’at Al-Ūlā. Al-Mujallad Al-Sādis. Dār Al-Rayyān Li Al-Turāth. Al-Qāhirah.Miṣr.

Al-Dhibānīi, Al-Nābighah. 1990. Dīwān Al-Nābigha. Dār Al-Fikr. Bayrūt - Lubnān.

Al-Farāhī, ‘Abdulḥamīd. Im’ān Fī Aqsām Al-Qur’ān. Dār Al-Muṣaniffīn. A’ẓam Karh. Al-Hind.

Al-Fayrūz Ābādī, Majduddīn Muḥammad Bin Yaqūb. 2012. Baṣāir Dhawī Al-Tamyīz Fī Laṭāif Al-Kitāb Al-’Azīz. Lajnat Iḥyā Al-Turāth Al-Islām. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Firazdaq, Hamām Bin Ghālib. 1997. Dār Al-Jīl. Bayrūt.

Al-Gharnāṭī, Abū Ḥayyān Al-Andalūsī. 1983. Tafsīr Al-Baḥr Al-Muḥīṭ. Dār Al-Fikr Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī’. Bayrūt. Lubnān.

Al-Jawziyyah, Ibn Al-Qayyim. Al-Tibyān Fī Aqsām Al-Qur’āni. Dār Al-Ma’rifah. Bayrūt. Lubnān.

Al-Khaṭīb, ‘Abdulkarīm. 1990. Al-Tafsīr Al-Qur’ānī Li Al-Qur’ān. Dār Al-Fikr Al-’Arabī. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Maghāwrī, Ṣāliḥ. Al-I’jāz Al-Bayānī Fī Āyat Al-Qur’ān Al-Karīm. Al-Markaz Al-Duwalī Li Al-Dirāsāt Al-Mutakhaṣṣiṣah Wa Al-Buḥūth Wa Al-Tarjamah. Al-Iskandariyyah.

Al-Marāghī, Aḥmad Muṣṭafā. 1985. Tafsīr Al-Marāghī. Dār Iḥyā Al-Turāth Al-’Arabī. Bayrūt. Lubnān.

Al-Māwardī, ‘Alī Bin Muḥammad Bin Ḥabīb Al-Baṣri. Al-Nukat Wa Al-‘Uyūn. Dār Al-Kutub Al-‘Ilmiyyah. Bayrūt. Lubnān.

Al-Miṣrī, Ibn Abī Al-Iṣbi’. 2012. Taḥrīr Al-Taḥbīr Fī Ṣina’at Al-Shi’r Wa Al-Nathr Wa Bayān I’jāz Al-Qur’ān. Lajnat Iḥyā Al-Turāth Al-Islāmī. Al-Qāhirah.

Al-Qurṭubī. Al-Jāmi’ Li Aḥkām Al-Qur’ān. Dār Al-Ma’ārif. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Rāzī, Muḥammad Al-Rāzi Fakhr Al-Dīn Bin Al-’Alāmah Ḍiyā Al-Dīn ‘Umar Al-Mushtah.1985. Tafsīr Al-Fakhr Al-Rāzi Al-Mashhūr Bi Al-Tafsīr Al-Kabīr Wa Mafātiḥ Al-Ghayb. Dār Al-Fikr Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī’. Bayrūt. Lubnān.

Al-Ṣābūnī, Muḥammad ‘Alī. 1981. Ṣafwat Al-Tafāsīr. Maṭābi’ Al-Dawḥah Al-Ḥadīthah. Al-Dawḥah. Qaṭar.

Al-Sayūṭī, Jalāluddīn ‘Abdulraḥmān. Ibn Abī Bakr. Kanz Al-‘Ummāl Fī Sunan Al-Aqwāl Wa Al-Af’āl. Bayt Al-Afkār Al-Duwaliyah. ‘Omān. Al-Urdun.

Al-Sayūṭī, Jalāluddīn ‘Abdulraḥmān. 1985. Al-Itqān Fī ‘Ulūm Al-Qur’ān. Dār Al-Turāth Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī’. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Sayūṭī, Jalāluddīn ‘Abdulrahmān. 1988. Mu’tarak Al-Aqrān Fī I’jāz Al-Qur’ān. Dār Al-Fikr Al-’Arabi. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Shanqīṭī, Muḥammad Al-Amīn Bin Muḥammad Al-Mukhtār Al-Jaknī. 2005. Aḍwā Al-Bayān Fī Īḍāḥ Al-Qur’ān Bi Al-Qur’ān. ‘Ālam Al-Kutub. Bayrūt.Lubnān.

Al-Sharqāwī, Aḥmad Matāḥ. 2019. http://saaid.net/doat/sharkawe

Al-Shawkānī, Muḥammad Bin ‘Alī Bin Muḥammad. 1994. Fatḥ Al-Qādir. Al-Jāmi’ Bayn Fannay Al-Riwāyah Wa Al-Dirāyah Min ‘Ilm Al-Tafsīr. Dār Al-Wafā Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī’. Al-Manṣūrah. Miṣr.

Al-Ṭabarī. Jāmi’ Al-Bayān.Dār Al-Rayyān Li Al-Turāth. Al-Qāhirah. Miṣr.

Al-Tha’ālibī, Abū Manṣūr ‘Abdulmalik Bin Muḥammad. 1992. Al-Iqtibās Min Al-Qur’āni. Al-Tab’at Al-Uwlā. Dār Al-Wafā. Al-Manṣūrah. Miṣr.

Al-Zamakhsharī, Abū Al-Qāsim Jārullāh Maḥmūd Bin ‘Umar. 2009. Al-Kashāf ‘An Ḥaqāiq Al-Tanzīl Wa ‘Uyūn Al-Aqāwīl Fī Wujūh Al-Ta’wīl. Dār Al-Rayyān. Al-Qāhirah. Dār Al-Kitāb Al-’Arabi. Bayrūt. Lubnān.

Amīn, Bakrī Shaykh. 1980. Al-Ta’bīr Al-Fannī Fī Al-Qur’ān Al-Tab’at Al-Rābi’at. Dār Al-Shurūq. Al-Qāhirah. Miṣr.

Bashār, Bard. 2008. Dīwānuh. Dār Saḥnūn Li Al-Nashr Wa Al-Tawzī’. Tūnis. Dār Al-Salām Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Al-Tawzī’ Wa Al-Tarjama.

Bint Al-Shāṭi’; ‘Āishah ‘Abdulraḥmān. 1990. Al-Tafsīr Al-Bayānī Li Al-Qur’ān. Dār Al-Ma’ārif. Maktabat Al-Dirāsāt Al-Adabiyyah. Al-Qāhirah. Miṣr.

Bin Shaddād, ‘Antarah. 1970. Dīwān ‘Antarah Bin Shaddād. Al-Kitāb Al-Islāmī. Bayrūt. Lubnān.

Bin Ya’qūb, Muḥammad. 2012. Baṣāir Dhawī Al-Tamyīz Fī Laṭāif Al-Kitāb Al-’Azīz. Al-Majlis Al-A’lā Li Al-Shu’ūn Al-Islāmiyyah. Lajnat Iḥyā Al-Turāth Al-Islāmī. Al-Qāhirah. Miṣr.

Ḍayf. Shawqī. 1995. Sūrat Al-Raḥmān Wa Suwar Qiṣār. Dār Al-Ma’ārif. Dār Al-Ma’ārif. Al-Qāhirah. Miṣr.

Ḍayf, Shawqī. 2010. Al-Qasam Fī Al-Qur’ān Al-Karīm. Dār Al-Ma’ārif. Al-Qāhirah. Miṣr.

Ibn Al-’Abd, Ṭarfah. 1999. Dīwān Ṭarfah Ibn Al-’Abd. Dār Al-Qalam Al-’Arabi. Ḥalab. Sūriā.

Ibn Al-Ḥajjāj, Muslim. 2012. Ṣaḥīḥ Muslim. Dār Ibn Ḥazm. Bayrūt. Lubnān.

Ibn Al-Sakīt. 1990. Dīwān Al-Nābighah Al-Dhibyānī. Dār Al-Fikri. Bayrūt - Lubnān.

Ibn ‘Arabī, Abū Bakr Muḥammad Bin ‘Abdullāh. 1935. Aḥkām Al-Qur’āni. Dār Al-Fikr Al-’Arabī Li Al-Tibā’ah Wa Al-Nashr Wa Dār Al-Ma’rifah. Bayrūt. Lubnān

Ibn ‘Āshūr, Muḥammad Al-Ṭāhir. 1984. Tafsīr Al-Taḥrīr Wa Al-Tanwīr. Al-Dār Al-Tūnīsyah Li Al-Nashr. Tūnis.

Ibn Kathīr, Al-Ḥāfiẓ. Kitāb Al-Sha’bi. Dār Al-Sha’b. Al-Qāhirah. Miṣr.

Ibn Mājah. 2012. Sunan Ibn Mājah. Dār Al-Ma’rifah. Bayrūt. Lubnān.

Ibn Manẓūr, Abū Al-Faḍl Jamāluddīn Muḥammad Ibn Makram. 1999. Lisān Al-’Arab. Dār Iḥyā Al-Turāth Al-’Arabī. Bayrūt - Lubnān.

Imru’ Al-Qays. Dīwānuh. Altab’at Al-Rābi’a. Dār Al-Ma’ārif; Dhakhāir Al-’Arab.

Jarīr. Dīwānuh. Maktabat Muḥammad Ḥusayn Al-Nawawī. Sūrya. Al-Sharikah Al-Lubnāniyyah Li Al-Kitāb. Bayrūt. Lubnān.

Majmū’at Min Al-‘Ulamā Bi Ishrāf Majma’ Al-Buḥūth Al-Islāmiyyah Bi Al-Azhar Al-Sharīf. 1992. Al-Tafsīr Al-Wasīṭ Li Al-Qur’ān Al-Karīm. Al-Hay’ah Al-’Āmah Li Shu’ūn Al-Maṭābi’ Al-Amīriyyah. Al-Qāhirah. Miṣr.

Naṣṣār, ‘Abdulraḥmān. 2018. Wakīl Mudīriyyat Awqāf Al-Iskandariyyah. Wizārat Al-Awqāf. Al-Sā’ah Al-Ḥādiyata ‘Ashar Ṣabāḥan Fī Liqā Jama’anī Bihi Fī Maktabih.

Quṭb, Sayyid. 1988. Fī Ẓilāl Al-Qur’ān. Dār Al-Shurūq. Al-Qāhirah. Miṣr.

Riḍā, Muḥammad Rashīd. 1990. Tafsīr Al-Manār. Al-Hay’ah Al-Miṣriyyah Al-’Āmah Li Al-Kitāb. Al-Qāhirah. Miṣr.

Shaḥātah, ‘Īsā. 2012. Dalālat Al-Wāw Fī Al-Naṣṣ Al-Qur’āni. Dār Al-Āfāq Al-’Arabiyyah. Al-Qāhirah. Miṣr.

Sulmā, Zuhayr Bin Abi. 1996. Dīwān Zuhayr Bin Abī Sulmā. Dār Al-Fikr Al-Mu’āṣir. Bayrūt - Lubnān. Dār Al-Fikr. Dimashq. Suryā.

Zalaṭ, ‘Abdulraḥīm. 1989. Al-‘Uddah Al-Nafsiyyah Wa Al-Māddiyyah Fī Shi’r Al-Ḥurūb Al-Jāhiliyyah. Dār Al-Ma’ārif. Al-Qāhirah. Miṣr.